توظيف أدب الرحلة في الرواية الجزائرية المعاصرة
رواية «المملكة الرابعة: تغريبة موجود الثاني» أنموذجا

The use of literature of travel in the contemporary Algerian novel. "The fourth kingdom: the alienation of Mawjoud II" as a model novel.

مريم بوزردة❖ المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصّوف❖ ميلة ❖ الجزائر

ملخص

اتّكأت رواية «المملكة الرّابعة: تغريبة موجود الثاني» من حيث بناؤها الجمالي والدّلالي على ما هو موجود في التراث العربي بالاعتماد على المرجعيّة الفنيّة الرّحليّة؛ حيث وظّف الرّوائي الجزائري الأزهر عطيّة أدب الرّحلة بجعله إطارًا رمزيا عبّر من خلاله عن أفكار مجرّدة، فاسحا المجال أمام محكي السّفر والاغتراب، الّذي تؤطّره شعريّة الاكتشاف والمعرفة؛ اكتشاف خبايا وأسرار المملكة من جهة، والتعرّف على تاريخها قديمه وحديثه من جهة أخرى، وتمكّن بذلك من التأريخ لفترات معيّنة دون أن يسمي أيّ مكان أو أيّة شخصيّة، بل بثّ في ثنايا المتن الرّوائي مؤشّرات دالّة تتّسم برمزيّة شاملة شكّلت مرجعيّة محيلة على أحداث تاريخيّة واقعية، يمكن فكّ شفراتها الدّلاليّة من خلال السّياقات النّصيّة في الرواية.

الكلمات المفتاحيّة: أدب الرّحلة، الرّواية الجزائريّة، الأزهر عطيّة، اللّغة الرّمزيّة، المتخيّل، التّاريخي.

Abstract

The aesthetic and semantic structure of the novel "The fourth kingdom: the alienation of Mawjoud II" depended on what is present in the Arab heritage using the artistic reference of the travel. The Algerian novelist Al-Azhar Atia uses travel literature as a symbolic framework through which he expresses abstract ideas, giving way to the narration of travel and alienation, all framed by the poetry of discovery and knowledge; the discovery of the mysteries and secrets of the Kingdom on the one hand, and the identification of its ancient and modern history on the other. Al-Azhar follows the history of certain periods without designating any place or person, but rather transmits in the narrative discourse some symbolic indicative signs forming a complete reference for real historical events. However the semantic codes can be decoded during the contexts of the novel.

Keywords: Travel literature, Al-AZHAR Atia, Symbolic language, Imagination, Historic.

مقدمة:

تُعدّ رواية «المملكة الرّابعة: تغريبة موجود الثّاني» عملا روائيّا تخييليّا، زاخرا بالإشارات والرّموز؛ حيث اعتمدت على لغة رمزيّة شكّلت فضاء تخييليّا محيلاً إلى وجود مملكة أطلق عليها السّارد اسم المملكة الرّابعة، الّتي مرّت بأزمات كثيرة أهمها: معركة الجراد الكبرى المجسّدة من خلال لعبة الخربقة• الّتي تُلعب تحديدًا في ساحات الخامسة عاصمة المملكة.

عمل الكاتب على نسج عالم «المملكة الرّابعة» الرّوائيّ من خيوط تراثيّة متشابكة اختلط فيها الخيال بالموهبة والواقعيّة، عالج من خلالها قضايا هامّة بشكل مبسّط وملتوٍ دون ذكر أسماء صريحة، أو تحديد أمكنة وأزمنة.

أوّلا: توظيف التّراث الرّحليّ في رواية «المملكة الرّابعة»:

قارب الأزهر عطيّة رواية «المملكة الرّابعة» من حيث بنيتها بما هو موجود في التّراث العربيّ من أدب الرّحلات، الّذي يتقاطع مع جنس الرواية من حيث اعتمادهما على الوصف، وتعرضهما لحياة النّاس وتصويرهما لواقع المجتمع.

وقد حفّزت هذه العناصر المشتركة بين الجنسين كُتّاب الرّواية على استلهام هذا التراث وتوظيفه ومحاكاته بكتابة روايات على شكل رحلات من خلال إقامة علاقات تناصيّة معها، وبناء نص جديد عليها.

يستهل الأزهر عطيّة نصّه بقسم تمهيدي موسوم بـ«في مقتضيات الرّحلة»، يشكّل سردًا إطاريا،[1] يتضمّن معلومات وتفاصيل تتجلى من خلالها صورة الرّحالة نصيّا في كونه ساردًا داخل حكائي، ومشاركا في الأحداث الّتي يرويها، ممّا جعل منه ساردا مشكّلا لمركز الفعل السّردي وشخصيّة رئيسة في الرّواية؛ لتشكّل قصّة الإطار هذه سردا لسيرة ذاتية هي سيرة موجود الثاني، الّتي يحدّثنا فيها عن نفسه، وعن دوافع وظروف استعداده للرّحيل. في حين ارتكزت بؤرتا السّرد والوصف الممثلتين لـ«جوهر العمليّة الأدبيّة في تشكيل وتوجيه وتصوير الأحداث والشخصيات وإبراز الدّلالة الأساسيّة في البنية

الرّوائيّة»،[2] خارج الذّات السّاردة العليمة بكلّ شيء على الحكاية التّابعة المشكّلة لسرد مطمور في القصّة الأولى؛ حيث يطّلع القارئ على ظروف مجيء السّلطان الأوّل وأخبار مملكته بدءا، يليه الثاني وصولا إلى الثالث، وانتهاءً بالرّابع، مركّزة على كلّ ما يخصّ المملكة الّتي ارتحل إليها، وعايش مختلف أحداثها السّياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، وبحث عن أهمّ الأخبار المتعلّقة بماضيها.

والملاحظ أنّ الأزهر عطيّة لم يقم نصّه الجديد على أساس اختيار نصّ رحليّ بعينه، بل اكتفى باستلهام الشّكل العام المؤطّر لأدب الرحلة بوصفه سردا نثريا يتضمّن وصف انتقال الإنسان من مكان إلى آخر، داخليّا كان هذا الانتقال أم خارجيّا؛ حيث يصف المرتحل كلّ ما يقع عليه بصره من مشاهدات، وما يستظرفه من أخبار، كما يتّسع لموضوعات متعدّدة؛ سياسية وعلميّة ودينيّة،[3] من خلال استحضار عوالمه، وجعله معبّرا عن واقع راهن، وقد تقاطعت رواية «المملكة الرّابعة» مع الرّحلة في:

• **وجود رحّالة** ينتقل بين المدن والأماكن، يصوّر ما جرى له من أحداث، وما صادفه من أمور أثناء رحلة قام بها لأحد البلدان. ويمثّله في الرواية موجود الثاني الّذي قرّر السّفر مرتحلا نحو «الخامسة» عاصمة مملكته، وسيّدة مدائنه؛ حيث مقام السّلطان، ومقرّ السّلطنة، أين تُساس المملكة، وتُدار شؤون الرّعيّة، والّذي جاء بعد حلمه الّذي كان بمثابة لحظة من لحظات تجليه النّادرة الّتي تتراءى له فيها الحقائق جليّة وواضحة على حقيقتها، لنقرأ:

«وبعد سير دام أيّامًا، صرت ألمح من بعيد ربوة كبيرة، تزاحمت فوقها البنايات، والتوت حولها الطرقات، وارتفعت على قمّتها أبراج محصّنة، ومنارات عالية. فأدركت حينها، أنّها أمّ القرى وسيّدة المدائن الّتي أقصدها. لقد كانت جميلة حقا، ومثيرة حتّى من بعيد. وقد أحاطت بها البساتين، والمساحات الخضراء، وحاصرتها من كلّ الجهات».[4]

• **التّحضير للرحلة** ككلّ رحّالة يعتزم الرّحيل استعدّ موجود الثاني لرحلته الّتي رأى أنّها لا تحتاج سوى لأشياء بسيطة فـ:

«لم يشأ أن يحمل معه إلاّ قليلا من الزّاد البسيط؛ من الأكل، وأدوات الكتابة. فاقتنى لذلك ورقا للكتابة، وجمع قصبا ليصنع منه أقلاما. واشترى صوفا ليحوّلها إلى مداد».[5]

وكانت هذه الأشياء على بساطتها هي الوسيلة الّتي مكّنته من تدوين تغريبته، وتغريبة شعوب هذه المملكة منذ القديم، بطولاتها وتضحياتها، مرورا بآخر معركة لها في العصر الحديث والّتي يطلقون عليها اسم «معركة الجراد الكبرى».

وبعد أن قرّر موجود الرّحيل، وإنجاز ما تراءى له في حلمه، فكّر في اختيار الوسيلة الّتي تيسّر له التنقّل من مكان إلى آخر، محتارا بين الجمل الصّبور، الفرس السّريع، والحمار البطيء والبسيط، وهناك السّير على الأقدام، ومن بين كلّ هذه الوسائل:

«وجد نفسه يختار حماره الأشهب. إنّه رفيقه الدّائم في رحلاته التأمليّة، ودليل التقشّف والبساطة في الحياة، وهو وسيلة أهل التصوّف في أسفارهم ورحلاتهم، وهو الصّبور على الحمل، خفّ أو ثقل. لا يشتكي، ولا يتألّم. ولا يظهر منه ما يوحي بذلك أبدا».[6]

والملاحظ أنّ كلاّ من ورق الكتابة والقصب والمداد مجتمعة تشكّل ثابتا ثقافيا، يتمثّل في الإعلان الاستباقي عن نيّة السّارد المرتحل موجود في تحصيل وتدوين مختلف المعارف والحقائق التّاريخيّة (سياسيّة كانت أو اجتماعيّة) في رحلته نحو «الخامسة» عاصمة المملكة؛ حيث:

«رأى أنّ رحلته تلك، لا تحتاج إلى أكثر من تلك الأشياء، وهي، رغم بساطتها، أخطر سلاح سيستعمله، إلى أن يعود».[7]

في حين شكّلت وسيلة السّفر المتمثّلة في حماره الأشهب ثابتا ماديا، حينما عمد إلى بيعه ليحصل على نصيب من المال عندما قرّر الإقامة والاستقرار بالمملكة.

• **الاستعانة بدليل أو استصحابه** لقد درج الرّحالة القدامى على استصحاب دليل يرشدهم، في ترحالهم، وتنقلهم من مكان إلى آخر، فموجود الثاني وإن لم يستصحب دليلا

أثناء بحثه عن عاصمة المملكة، وتنقله من مكان إلى آخر فإنّه استعان بأشخاص من أهالي القرى المجاورة الّتي حلّ بها، حينما:

«... حدّث[ـه] أحد الشّيوخ عن ضالّتـ[ـه]، فأخبر[ـه] عن عاصمة المملكة، ومقرّ الملك».[8]

في حين قدّم له:

«رجل آخر، شرحا مبسّطا لما قاله سابقه:

- هي خامسة المدن، وأمّ القرى، وقلب الوطن المترامية أطرافه هنا وهناك...».[9]

• **استخدام ضمير المتكلّم (أنا)** تُعدّ الرّحلة «من أولى الأشكال التّعبيريّة الّتي استعملت فيها الكتابة بضمير الأنا دون تحرّج؛ ومن الأشكال الّتي تطرح فيها، باستمرار صورة الآخر»،[10] فضمير المتكلّم هو الضمير الغالب على قصّة الإطار الّتي سادت فيها الرّؤية المصاحبة الّتي نحافظ معها على «الانطباع الأوّل الّذي يقتضي بأنّ الشخصية ليست جاهلة بما يعرفه الرّاوي، ولا الرّاوي جاهل بما تعرفه الشّخصية»؛[11] لأنّ موجود السّارد/ الشخصيّة الرّئيسة يحدّثنا فيها عن نفسه، وعن الآخر المتمثّل فيما نقله من أخبار عن السّلاطين الّذين تعاقبوا على عرش المملكة، لنقرأ:

«كان مقصدي أمّ القرى، وسيّدة المدائن، الخامسة. فقد صرت أتشوّق إليها كثيرا، منذ أن حدّثني عنها ذلك الشّيخ. ومنذ أن استقبلني أهل القرية الأولى، وودّعوني بتلك الطريقة، الّتي جعلتني أراجع نفسي من البداية. وبالضّبط منذ بدأت رحلتي الكبرى».[12]

وإلى جانب استخدام ضمير المتكلّم استخدم الرّوائي ضمير الغائب الّذي ظهر في الجزء الأوّل من قصّة الإطار لتقديم (السّارد/ الشّخصيّة الرّئيسة)، وضمير المخاطب الّذي ظهر من خلال الحوار الدّاخلي الّذي يدور بينه وبين نفسه محاولا إيهام القارئ بأنّه هو ذاته المسرود له، والملاحظ هنا أنّه عمد من خلال تعدّد الضّمائر على الإيحاء بتعدّد الأصوات الرّوائيّة.

• **اللّغة** عادة ما يستخدم أدب الرّحلة اللّغة البسيطة المائلة إلى لغة المحادثة العاديّة،[13] غير أنّ الأزهر عطيّة عمد إلى استخدام لغة مستقاة من التراث، كتوظيفه لتسميات تنتمي إلى العالم القديم: كالمملكة، السّلطان، الأميرة، الملك، السّلطنة، الرّعية... حتّى يطبع نصّه المتخيّل برمزيّة تامّة.

• **الوصف** اهتم موجود بوصف الحياة الاجتماعيّة والسّياسيّة لسكّان المملكة الّتي زارها؛ حيث لاحظ أنّهم:

«يحرثون أرضهم بالتضامن، ويزرعونها بالتضامن. يبنون بيوتهم بالتضامن، ويعيشون فيها بالتضامن. يتزوّجون بالتّضامن، ويطلّقون به. يتخاصمون بالتضامن، ويتصالحون به.

إنّهم يؤسّسون قواعد مملكتهم بالتضامن، منذ أن عرفوا قيمة التضامن الوطني. إنّه الشّيء الذي استطاع أن يُخرج الأعداء من مملكتهم عدّة مرّات، وينصرهم على الجراد عدّة مرّات أيضا، ويجمع شملهم في الأخير...».[14]

والملاحظ أنّ رواية «المملكة الرابعة» قد اختلفت عن أدب الرّحلة في أهميّة الوصف في كلّ منهما، فإذا كان الوصف هو جوهر الرّحلة، والأساس الذّي ينهض عليه بناؤها، فإنّ كلّ حكي يجب أن يتضمّن سردا ووصفا معا.[15]

ثانيا: اشتغال النّموذج العاملي في رواية «المملكة الرّابعة»:

وبما أنّ الرّواية تحكي عن الرّحلة الّتي قام بها موجود الثاني نحو الخامسة عاصمة المملكة الّتي ارتحل إليها مغتربا، باعتبارها مكانا متخيّلا، استلزم مروره عبر عدّة مناطق؛ أين: «رأى موجود ما رأى مدنا وقرى، ودولا، وأجناسا من البشر، وعجائب كثيرة، لا تعدّ ولا تحصى».[16] وهذا ما أهّله لامتلاك معلومات متنوّعة وغزيرة نتيجة تنقلاته المختلفة والمستمرة، فالهدف من اغتراب موجود الثاني وسفره إلى الخامسة هو تحصيل المعرفة التّاريخيّة التّامة، لذا جاءت رواية «المملكة الرابعة: تغريبة موجود الثاني»، مؤطّرة سيميائيا بالاكتشاف والسّعي وراء معرفة كلّ ما يخص ماضي المملكة، وبما أنّ القيام ببرنامج

سردي حسب غريماس (A. J. Greimas) يتطلّب فاعلا إجرائيا مؤنسنا Sujet opérateur Anthropomorphe،[17] يمثّله في هذه الرّواية عامل الذّات موجود الثاني، ليكون إمّا:

فاعل حالة؛ حينما يكون في علاقة اتّصال أو انفصال بموضوع القيمة – L'objet valeur المتمثّل في امتلاك المعرفة التّاريخيّة؛ لأنّ العلاقة بين العامل الذات والعامل المرسل هي الّتي تحدّد فاعل الحالة (الّتي تبرز وضعية الذّات في علاقتها بموضوعها).

أو فاعل فعل التّحوّل الّذي يكون في علاقة اتّصال أو انفصال؛ حيث يتحقّق هذا التحوّل من قبل عامل الذات الّذي يفترض أن يكون محفّزا من قبل عامل آخر هو المرسل المتمثّل في الرّغبة في اكتشاف خبايا وأسرار المملكة ومعرفة تاريخها، يقنعه فيقتنع بالإنجاز محقّقا ما يسمى بالتّحفيز Manipulation، وحتّى يتمكّن العامل الذّات/ الفاعل الإجرائي من إنجاز برنامجه السّردي يجب أن يمتلك شروطا ضروريّة، تسمى القيم الجيهية Modalités، أو القدرة، وهي: وجوب ومعرفة وإرادة الفعل والقدرة عليه، وتمثّل هذه القيم مجتمعة أو القدرة موضوعا يمكن أن يمكن أن يكون الفاعل الإجرائي ممتلكا لها أو لا، وهي ما يمكّنه من الاتّصال عن موضوع القيمة. وقد امتلك موجود الثاني/ الفاعل الإجرائي هذه القدرة الإجرائيّة المتمثّلة في القدرة على السّفر والارتحال، من خلال توافر النّص الرّوائي على القيم الجيهيّة كلّها، فـ**وجوب الفعل** متحقّق باتخاذ موجود قرار القيام برحلة كبرى نحو الخامسة عاصمة المملكة، الّذي جاء بعد حلمه الّذي كان لحظة من لحظات تجليه النّادرة.[18]

في حين تأتت له **معرفة الفعل** من كونه رحّالة ابن رحّالة، صاحب علم واسع في فنّ الرّحلات ومستجداته، لنقرأ: «وهو ما زال كذلك إلى الآن؛ يجمع ويقرأ، ويرحل باستمرار. ودون كلل أو ملل، يجوب الأمصار، ويقطع البحار، باحثا عن كلّ شيء. بل عن أيّ شيء كان».[19]

أمّا **إرادة الفعل** فتحقّقت له من خلال حبّه للرّحيل والأسفار منذ الصّغر، «لذلك ظلّ يرحل باستمرار، ويعشق الرّحيل طول حياته، ويعمل على جمع أخبار الرّحالة، في قديم الزّمان وحديثه».[20]

لتأتي **القدرة على الفعل** خيرا متمثّلة في قدرته على اتّخاذ قرار الرّحيل وعقد العزم على السّفر.

وبتحقّق القيّم الجيهيّة السّالفة الذّكر يكون الفاعل الإجرائيّ في حالة اتّصال بموضوع القيمة؛ لأنّها تمثّل شرطا ضروريا له.

في حين يسمى الموضوع الرّئيس موضوع القيمة؛ لأنّه مرتبط بالإنجاز Performance، وبالعلاقة بين العامل الذّات والعامل المرسل، والمتمثّلة في البرنامج السّردي الّذي يقوم العامل الذّات في بحثه عن موضوع القيمة. ويمكن توضيح ما سبق من خلال النّموذج العاملي Modèle Actantiel الموالي:[21]

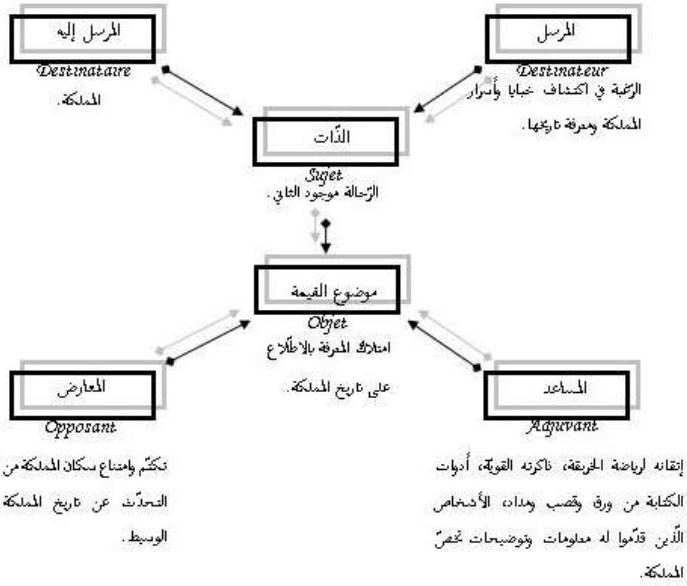

وتنتظم هذه العوامل في ثلاثة أزواج ليست مركّبة تركيبا اعتباطيا، فكلّ زوج يتكوّن من عاملين يربط بينهما معيّن، وعليه يصبح لدينا محاور دلاليّة تكون ممثّلة للعلاقات الّتي تعتبر روابط تجمع بين العوامل، وهي:[22]

- (المرسل/ المرسل إليه)⇔ علاقة/ محور الإبلاغ Communication . دور المرسل (الرغبة في اكتشاف خبايا وأسرار المعرفة) هو إقناع العامل الذّات
- (الذّات/ الموضوع)⇔ علاقة/ محور الرّغبة Désire . فالذّات (الرّحالة موجود الثاني) ترغب في تحقيق موضوع القيمة (امتلاك المعرفة بالاطّلاع على تاريخ المملكة).
- (المساعد/ المعارض)⇔ علاقة/ محور الصّراع Lutte. نلاحظ أنّ العوامل المساعدة أكثر من العوامل المعارضة في الرواية، فهي خادمة للبرنامج السّردي الأساس الّذي يقوم العامل الذّات (الرّحالة موجود الثاني) بإنجازه، لتحول بذلك دون عرقلة تحقيقه لموضوع القيمة، وهذا ما سيضمن نجاح المسار السّردي، بحصول العامل الذّات على موضوع القيمة واتّصاله بها في النهاية؛ أي معرفة موجود لكلّ أخبار المملكة والتأريخ لها ما سيحدث تحوّلا في المسار السّردي ما جعله يتّخذ قرار مغادرة الخامسة بعدما أصبح كلّ شيء مملا ورتيبا، وبذلك تكون رحلته إلى عاصمة المملكة قد انتهت.

تمكّنت رواية «المملكة الرابعة: تغريبة موجود الثاني» كنص متخيّل من استيعاب المكوّن المعرفي، دون أن تكسر جماليّة النّص الرّوائي وفنيّته؛ لأنّ «المعرفة الرّوائيّة، نتيجة للمخيّلة والتّخييل وإمكانيات التّشكيل، تتّسع وتتشعّب وتتخصّص من خلال العالم التخييلي للنّص الرّوائي لتدفع القارئ إلى التذكّر والتأمّل والمقارنة، والقبول أو الرّفض لما ينسج الخطاب الرّوائي الّذي يمتح من مجالات متعدّدة، متداخلة الحدود».[23] وهذا ما يثبت قدرة المتخيّل الرّوائي على خلق إطارٍ رمزيّ يسمح بالحفاظ على خصائص النّص الجماليّة، وذلك بإحداث مزج بين الحفر التاريخي والحفر الرّوائي باعتبار المعرفة الّتي يقدّمها النّص المتخيّل معرفة تاريخيّة، ما أحدث مواءمة بين كلّ ما هو تقليدي وحداثي، فليس من الصّعب على القارئ فكّ الرّموز الموجودة في المتن الحكائي من خلال الكشف عن الأساس التّاريخي للرّواية.[24]

ثالثا: دلالات المعرفة النّصيّة في رواية «المملكة الرّابعة»:

وفيما يلي نحاول الكشف عن دلالات المعرفة النّصيّة الّتي تقدّمها رواية «المملكة الرّابعة»، بوصفها عملا تخييليا زاخرا بالإشارات والرّموز.

دلالات المعرفة الجغرافيّة:

تتمرّد رواية «المملكة الرّابعة» على مقولة «الرّحلة عين على الجغرافيا المبصرة»؛[25] لأنّ وصف الفضاءات الّتي مرّ بها الرّحالة موجود الثاني توحي بصوّر مدن تخييليّة، مشابهة لتلك الّتي تنقلنا إليها حكايات ألف ليلة وليلة، فلا شخصياتها ولا أزمنتها تحيلك في بداية الأمر إلى واقعها؛ حيث يكتسب فيها المكان قيمته التّعيينيّة، فما المملكة الرابعة إلاّ الجزائر، وما الرّمز المقرون بكلمة المملكة الرابعة إلاّ دلالة تخصيصيّة ندركها جغرافيا بصفة تراتبيّة تاريخيّة؛ لأنّها كانت آخر من نالت استقلالها بين مثيلاتها من دول المغرب العربي: (ليبيا، تونس والمغرب). وقسّمت هذه المملكة إلى خمسة أماكن رئيسة، هي:

الخامسة: مقر جميع السّلطات المتعاقبة عليها، أين تساس أمور الرّعيّة وتُدار شؤون البلاد وهي سيّدة المدائن وأمّ القرى، كما شبّهها السّارد ليرفعها إلى درجة قدسيّة الأماكن (مكّة المكرّمة – القدس)، لنقرأ:

«هي خامسة المدن، وأمّ القرى، وقلب الوطن المترامية أطرافه هنا وهناك. عندما تراها ستعجبك بالتأكيد. ستسحرك.

ثمّ راح يرسم لك مخطّطا لتوزيع المدن الخمسة المهمة في المملكة. وبعصاه الزيتونية، خطّ أمامك مربّعا، وفي كلّ زاوية منه إشارة لواحدة منها. تتوسّطها في القلب الخامسة».[26]

في حين عبّر عن المدن الأربعة الباقية، بإطلاق تسميات خاصّة تحمل في طيّاتها علامات مميّزة تحيل بشكل جليّ إلى مرجعها الواقعي، نحدّدها من خلال المقطع الموالي:

«(...) [فالمملكة] مقسّمة، حسب العرف الشّائع عندهم، إلى أربع مناطق كبيرة هي: البرّ الشّرقي، والبرّ الغربي، والبرّ المالح، وبلاد الحرّ (...) فأمّا البرّ الشّرقي، فهو شرق المملكة كلّها. (...) وهو معبر النّاس إلى الحجّ، وطلب العلم، وأمنية كلّ إنسان

(...) وأمّا البرّ الغربي فهو غرب المملكة، (...) وهو منبع الحكمة والحكماء، ومقرّ الصّالحين من الأولياء. ومزار ذوي الحاجات من المحرومين، والمظلومين (...) ثمّ هناك البرّ المالح، وهو جنوب المملكة، حيث مقالع الملح، التي تشتهر بها البلاد (...) وأخيرا بلاد الحرّ. وهي شمال المملكة، ووجهها البحري (...)».[27]

نستنتج من خلال المؤشرات المبثوثة في ثنايا هذا المقطع أنّ **البرّ الشرقي** و**الغربي** يمثلان الشّرق والغرب الجزائريين، في حين يمثّل **البرّ المالح** الجنوب الجزائري، أمّا **بلاد الحرّة (الحرّ)** فتحيلنا إلى السّاحل الجزائري الشّمالي.

اتّسم فضاء رواية «المملكة الرابعة» الجغرافي برمزيّة تامّة، حُبكت فيه الأحداث والوقائع بصورة تخييليّة شكّلت خلفيّة ممهّدة للتّعبير عن وقائع المملكة السّياسيّة والاقتصاديّة الّتي سعى الرّحالة موجود الثاني للتّعرف عليها وتدوين أخبارها، مشكّلة بذلك المعرفة التّاريخيّة الّتي تمثّل فترات الحكم الّتي تعاقب عليه عدد من رؤساء الجزائر.

دلالات المعرفة السّياسيّة والاقتصاديّة:

تقدّم رواية «المملكة الرّابعة» معرفة سياسيّة واقتصاديّة مرتبطة بالفضاء الجغرافي للملكة الّتي ارتحل إليها السّارد موجود الثاني، معرفة تقرّب القارئ من خلفيات تداول السّلاطين الأربع على كرسي عرش المملكة بشكل متعاقب، وكيفية تسيير الشؤون الدّاخليّة لشعوب هذه الجغرافيا النّصيّة.

ومن بين أهمّ الرّموز المعرفيّة الّتي حوتها الرّواية نذكر:

✍ **معركة الجراد الكبرى:** كانت آخر حرب خاضها شعب المملكة ضدّ الجراد، المجسّدة من خلال لعبة الخربقة، الّتي حاول الأزهر عطيّة من خلال توظيفها أن يعكس صراع الشّعب الجزائري مع مختلف القوى الاستعماريّة الّتي عانى من ويلاتها على مرّ العصور، مبرّرا سبب اختياره لها في قوله:

«لأنّ هذه الرياضة من أصالة الشّعب هناك، ومن تاريخ المملكة العريق، فعن طريقها كنت أغوص في أعماق تاريخ المدينة وتاريخ المملكة كلّها».[28]

فهي اللعبة الوحيدة الّتي تدلّ قواعد لعبها على الفترات العصيبة الّتي عاشتها الجزائر في سبيل نيل استقلالها.

كما عكست الصّراع القائم على السّلطة (العرش) بين الأحزاب السياسيّة العديدة الّتي نشأت أثناء وبعد الاحتلال الفرنسي، لنقرأ:

«إنّها رياضة الخربقة وهي أكثر الرياضات انتشارا وشعبيّة في تلك المملكة. وفي ذلك اليوم، كان أبطال المملكة الوافدون من كلّ أرجائها، يتبارون على حمل اللّقب الوطني، وانتزاع الجائزة الأولى».[29]

فبمجرّد الظّفر بالنّصر (الاستقلال) عاد أبطال المملكة الّذين كانوا على جبهات مختلفة، وفي جعبة كلّ فريق منهم صواب ما يعتقده وما يصبوا إليه، إنّها السّلطة بلا منازع.

كما بيّنت الصّراع القائم بين المجتمعات الشّعبيّة (الشّعب الجزائري) والسّلطة (الاستعمار الفرنسي) من خلال كلابها (جنود الاستعمار)؛ حيث تلجأ المجتمعات الشّعبيّة إلى استخدام الرّمز في صراعها مع السّلطة. كما يرمز (الكلاب/ الجنود) فيها إلى حاشية السّلطان (الملك/ الرّئيس)، والكيفيّة الّتي تُساس من خلالها شؤون المملكة، وقد تكون النتيجة (الخلع/ الانقلاب) على الملك كما حدث مع (السّلطان الأوّل/ أحمد بن بلّة)، أو (التنحي عن العرش/ الإقالة) كما حدث مع (السّلطان الثالث/ الشاذلي بن جديد).

وبهذا تقابل معركة الجراد الكبرى الثّورة الجزائريّة الكبرى ضدّ الاحتلال الفرنسي للجزائر، فلطالما تردّدت تسمية جنود الاحتلال الفرنسي بـ«الجراد المرّاد» في حقبة الاستعمار، فكما يقوم الجراد بجرد الأرض كلأها ومرعاها فيتركها جرداء لا نبات فيها، جرّد الاستعمار الفرنسي الجزائريين من ممتلكاتهم وأراضيهم.

✍ **التّضامن الوطني:** ويُقصد به نظام الاشتراكيّة الّذي انتهجته الجزائر في عهدة الرّئيس هوّاري بومدين/ السّلطان الثاني،

لم تكن للروائيين طريقة واحدة في توظيف التراث السردي، بل كانت لهم أكثر من طريقة، فبعضهم وظف نصاً تراثياً محدداً، وأقام عليه معمار روايته، مستفيداً من بنيته

العامة وأسلوبه وبنيته السردية، وبعضهم وظف الشكل الخارجي للتراث، وجعله إطاراً عاماً لروايته، وبعضهم وظف أنواعاً تراثية متعددة، وضمنها في رواية واحدة.

عبر الروائيون من خلال توظيف التراث عن الواقع المعيش، فأكدوا استمرار الماضي في الحاضر، وأسقطوا ما حدث أو ما سيحدث على ما يحدث، واتخذوا بعض الشخصيات التراثية رموزاً لشخصية الإنسان العربي في الواقع الذي رصدوه في رواياتهم.

ترك توظيف الروائيين للتراث تأثيراً في الرواية العربية المعاصرة مس مكوناتها، على مستوى الحدث والحبكة والشخصية، كما مس الشكل الفني للرواية، الذي بدا مختلفاً عن الشكل الفني للرواية التقليدية، ومختلفاً عن المتعارف عليه في جنس الرواية، فكثرت المقاطع والأقسام، وتحولت الرواية إلى مجموعة من القصص القصيرة. وأدى خروج تيار توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة على الشكل التقليدي للرواية العربية إلى غياب كلمة "رواية" عن أغلفة بعض الروايات.

المصدر:

1. عطية (الأزهر): المملكة الرابعة تغريبة موجود الثاني. (د.ط)، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر، 2007.

المراجع:

1. حجازي (سمير سعيد): قاموس مصطلحات النّقد الأدبي المعاصر. ط1، دار الآفاق العربيّة، القاهرة/ مصر، 2001.

2. نصّار (حسين): أدب الرّحلة. ط1، الشّركة المصريّة العامّة، مصر، 1991.

3. عطيّة (الأزهر): المملكة الرّابعة تغريبة موجود الثاني. (د. ط)، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر، 2007.

4. حليفي (شعيب) : الرّحلة في الأدب العربي التجنّس، آليات الكتابة، خطاب المتخيّل. ط1، رؤية للنّشر والتّوزيع، القاهرة، 2006،.

5.لحمداني (حميد): بنية النّص السّردي من منظور النّقد الأدبي. ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت – الدّار البيضاء/ لبنان – المغرب، 1991.

6.حسين (حسني محمود): أدب الرّحلة عند العرب. ط2، دار الأندلس، بيروت/ لبنان.

7. بوطاجين (السّعيد): الاشتغال العاملي دراسة سيميائيّة "غدا يوم جديد" لابن هدوقة عيّنة. ط1، منشورات رابطة كتّاب الاختلاف، الجزائر، 2000، ص 17.

8. Greimas (A. j) : Sémantique Structurale : recherche de méthode, Larousse, Paris/ France, 1966, p 180.

9. Coutes (J): Introduction à la sémantique narrative et discursive, éd : Hachette, Paris, 1976, p p 64 – 68.

الهوامش والإحالات:

• الخربقة: لعبة شعبيّة تقابل الشطرنج لعبة الملوك والطّبقات الأرسطوقراطيّة، تختلف عنها في عدد الخانات، تبنى هذه اللّعبة على الصّراع القائم بين المجتمع وجنود الحاكم من خلال محاولة إيذاء الملك المحمي الّذي لا يصله أحد من العامّة بإلحاق الأذى بجنوده، وتقوم اللعبة على حماية الملك وتنتهي بموته. كما يقابل البيدق في الشّطرنج الكلب في الخربقة.

[1] حجازي (سمير سعيد): قاموس مصطلحات النّقد الأدبي المعاصر. ط1، دار الآفاق العربيّة، القاهرة/ مصر، 2001، ص 91.

[2] المرجع نفسه، ص 58.

[3] ينظر: نصّار (حسين): أدب الرّحلة. ط1، الشّركة المصريّة العامّة، مصر، 1991، ص ص 113 – 132.

[4] عطيّة (الأزهر): المملكة الرّابعة تغريبة موجود الثاني. (د. ط)، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر، 2007، ص 45.

[5] المصدر نفسه، ص 12.

[6] المصدر نفسه، ص 12.

[7] المصدر نفسه، ص 12.

[8] المصدر نفسه، ص 15.

[9] المصدر نفسه، ص 16.

[10] حليفي (شعيب): الرّحلة في الأدب العربي التجنّس، آليات الكتابة، خطاب المتخيّل. ط1، رؤية للنّشر والتّوزيع، القاهرة، 2006، ص7.

[11] لحمداني (حميد): بنية النّص السّردي من منظور النّقد الأدبي. ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت – الدّار البيضاء/ لبنان – المغرب، 1991، ص 45.

[12] المصدر نفسه، ص 19.

[13] ينظر : حسين (حسني محمود): أدب الرّحلة عند العرب. ط2، دار الأندلس، بيروت/ لبنان، 1938، ص 48.

[14] المصدر نفسه، ص ص 37، 38.

[15] ينظر: لحمداني (حميد): بنية النّص السّردي من منظور النّقد الأدبي. ص 78.

[16] المصدر نفسه، ص 10.

[17] voir : Coutes (J): Introduction à la sémantique narrative et discursive, éd : Hachette, Paris, 1976, p p 64 – 68.

[18] ينظر: عطيّة (الأزهر): المملكة الرّابعة تغريبة موجود الثاني. ص11.

[19] المصدر نفسه. ص 10.

[20] المصدر نفسه. ص 10.

[21] بوطاجين (السّعيد): الاشتغال العاملي دراسة سيميائيّة "غدا يوم جديد" لابن هدوقة عيّنة. ط1، منشورات رابطة كتّاب الاختلاف، الجزائر، 2000، ص 17.

[22] Greimas (A. j) : Sémantique Structurale : recherche de méthode, Larousse, Paris/ France, 1966, p 180.

[23] برادة (محمّد): نقد الرّواية وإنتاج المعرفة. ضمن: الرواية العربيّة في نهاية القرن رؤى ومسارات، (د.ط)، منشورات وزارة الثقافة، سلسلة ندوات، فبراير 2006، ص 253.

[24] ينظر: سليمان (نبيل): أسرار التخييل الرّوائي. (د.ط)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق/ بيروت، 2005، ص 114.

[25] برادة (محمّد): المرجع السّابق، ص 253.

[26] المصدر نفسه. ص 16.

[27] المصدر نفسه. ص ص 40 –41.

[28] المصدر نفسه. ص 23.

[29] المصدر نفسه. ص 21.